

الشهرة والجماهير

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

—•••—

في سنة ١٩٠٩ كنت ألازم من الأدباء صديقنا المرحوم الأستاذ محمد السباعي صاحب كتابي « الصور » و « السمر » و مترجم قصة « المدينين » لـ دكنز و « الأبطال » لـ كارليل و « التريية » لـ بنسر وعشرات من الكتب الأخرى . وما أظن بأبناء هذا الجيل إلا أنهم يجهلون ولا يعرفونه ولا يخطر لهم أنه عاش على ظهر هذه الأرض ، وكان له فضل على الأدب الحديث . وأحسب أنه سيكون على أن أعرفهم وأذكرهم به إنصافاً له وقضاء لحقه على قان له لدينا في عتق

وكان السباعي — رحمه الله — منبهماً بالأدب لايشبع ، وعاشقاً لايسلو ؛ وقلما رآه أحد إلا وفي يده كتاب أو كراسة . ولا أدري ماذا لفته إلى ابن الرومي ، ولكن الذي أدري أنه كان يذهب إلى دار الكتب وينسخ ديوان ابن الرومي في كراسات ويحفظ أكثر شعره عن ظهر قلب فأعداني بحب هذا الشاعر المتكود الحظ فقلدته واستنسخت شعره ؛ فلما كملت عندي نسخته شرعت أبيضها في كراسات بعد تصحيح ما يوفقني الله إلى تصحيحه من الأغلاط التي لا آخر لها في نسخة دار الكتب

وكان صديقنا الأستاذ السيد عبد الرحمن البرقوق قد أصدر مجلة البيان فاقترح علي أن أكتب عن ابن الرومي ففعلت ؛ وكان هذا حافزاً آخر لدرسه ، ولكن الحرب صرفتني عن مواصلة الكتابة فانقطعت عنها إلى سنة ١٩٢٤ . وفي أثناء ذلك ظهر الجزء الأول من ديوان ابن الرومي شرح المرحوم الشيخ شريف ثم الثاني بعد وفاته ، وغنارات من شعر ابن الرومي جمعها الأستاذ كامل الكيلاني ، فوصلت ما انقطع وعدت إلى الكتابة عن ابن الرومي في جريدة الأخبار وجمعت ذلك كله ونشرته في كتابي « حصاد المهشم » وكان من توفيق الله بعد ذلك لهذا الشاعر المغمور أن عني به

١٢٠ ٢٥

صديقنا الأستاذ العقاد فتناوله بالبحث الوافي والدرس الدقيق في كتابه الجليل عنه

وهكذا برز ابن الرومي من ظلمة الخفاء ونضت عنه الأكفان التي ظل ملفوفاً فيها أكثر من ألف سنة

خطر لي وأنا أدبر هذا في نفسي أن في العالم من أبناء اللغة العربية أكثر من مائة مليون ، وأن من هؤلاء نحو عشرة ملايين يقرأون ويكتبون ، فكيف من هؤلاء يقرأ ابن الرومي والمنبجي والمعري والشريف وأبا تمام والبحراني وأبا نواس وغيرهم وغيرهم ؟ لا أكثر من بضعة آلاف قليلة . وجل هؤلاء يقتنون الكتب كما يقتنون التحف ويرصونها للزينة لا للاطلاع ، ويتخذونها كما يتخذون السجاجيد والزهرات والصور وما إلى ذلك . والذين يفتحونها ، منهم من يفعل ذلك للتسلية وترجية الفراغ ، والأقلون هم الذين يمتنون بالدرس والتحصيل ؛ فهم في هذا العالم العربي الطويل المريض لا يعدون بضعة مئات . فكان خلود الأديب في أخلاق الناس ليس معناه أن السواد الأعظم منهم يعبأون به ، بل معناه أن قلة ضئيلة هي التي يرجع إليها الفضل في بقاء اسم الأديب مذكوراً وآثاره منشورة

وهذا هو الخلود — ثلاثة أو أربعة أو أكثر من المجانين بشيء لا يزالون يقرعون الطبول باسم من الأسماء ويلحون به على الناس حتى يوقظوا النفوس لهذا الاسم ويوحوا إليها أن صاحبه جدير بالذكر وأن آثاره تستحق الاقتناء

ومن كان لا يصدق فليسال نفسه : هل شهرة المنبجي مثلاً ترجع إلى تعلق رجل الشارع به . . . أليس الواقع أنه لو كانت شهرته رهناً بمناية الرجل العادي به لما طال عمرها أكثر من بضعة أيام — أسبوع على الأكثر . . . والمنبجي مع ذلك أشهر شعراء العرب ، وحكمه لا تزال تدور بها الألسنة وتجري بها الأقلام ، وديوانه يعاد طبعه كل بضعة أعوام مرة . ولكن كم نسخة تطبع من ديوانه في كل مرة ؟ ألفان .. ثلاثة آلاف .. أربعة آلاف .. في عالم عربي يبلغ عدد القراء فيه عشرة ملايين أو خمسة على الأقل إذا جادت ... فاظنك يحيط الذين هم أقل منه شهرة ؟

والمدارس والجامعات تخرج في كل عام — في هذا العالم العربي — عشرات من الآلاف تلقوا دروساً في الأدب ، وعرفوا أسماء الأدباء ، وألوا إلى حد ما بمحاضرات فنونهم وبميزات آثارهم ، ومع ذلك تبقى ثلاثة آلاف نسخة من ديوان شاعر كالنبي محتاجة إلى أكثر من عشر سنوات لتنفذ ... ولولا أن في كل جيل بضعة مجانين بالأدب لا يكفون عن الصياح بأن النبي شاعر فحل وأنه رجل عظيم ، وأنه جدير بأن يقرأ ويدرس لبقيت هذه الآلاف القليلة من نسخ ديوانه مكدة في مخازنها لا تجد لها طالباً

هؤلاء المجانين القليلون هم الذين ينقذون السمات من الفناء ويقومون بها حياة جيلة بعد جيل . فإن لكل جيل مجانينه الذين لا يزالون يبحثون ويتقبون حتى يعثروا على عظيم مقبور كما يفعل المنقبون عن آثار الدينيات التي عني عليها الزمن — لا يعرفون فتور ولا يدركهم وفي ؛ حتى ليكاد المرء يعتقد أنه لا خوف من بقاء عظيم مدفوناً وحقه مهضوماً وفضله مطوياً أو بمجوداً . وقد لا يكون في هذا ما يعزي العظيم ، ولعله شبه بمنح القليل في ساحة الحرب وساماً على سبيل الاعتراف ببسالته ، والشهادة بحسن بلائه ، ولكنه على كل حال يجدي بأن يمنع اليأس من إنصاف الدنيا ولو بعد الأوان .

وحتى حين يفوز المرء في حياته بالشهرة التي يستحقها — أو لا يستحقها كلها — عند الجماهير يكون الفضل في بقاء هذه الشهرة للقلة للتحمة ، لا للكثرة التي لا تلبث أن تذهل عما أحببت ومن أحببت . وبهذا وحده تظل الجماهير تذكر وهي لا تفعل ذلك عن اقتناع أو فهم وإدراك صحيح لاستيجاب الشهرة ، بل لأن هؤلاء المجانين الذين لا يخلو منهم زمن يقولون لها عشرة آلاف مرة أو عشرين ألف مرة إن فلاناً عظيم وحقيق بالذكر والتخليد ، فتصدق وهي لا فاهمة ولا مدركة . ويقصد آحاد من هذه الجماهير التي فعل الإيحاء في نفوسها فعله — إلى المكاتب ويشترى ديوان النبي ويضعونه على الرف ويفركون أيديهم وهم فرحون باقتناء هذه التحفة التي آمنوا بأنها خالدة وأنها أبقي على الزمن من الزمن

ونسأل : لماذا يجن هؤلاء الأقولون بخارجيات السلف ، فلا يجد

جواباً يقنع العقل وتسكن إليه النفس . وإن تعدد من يقول لك إن سر هذا الجنون هو ما في هذه الآثار من الحق والحكمة والفكاهة والجمال ، ولكن هذه لا تزال ألفاظاً تتطلب معانيها التحديد ، ومن البعث أن تلعب لي بها وتضع لي منها توافق وتبادل ، وترغم أن هذه هي المعاني التي تفهم من هذه الألفاظ التي نسمع بدوران معانيها في النفس وتعيينا العبارة الدقيقة عنها ... أو هذا على الأقل حالي أنا معي . وإذا كان شاعر مثل « كيتس » يستطيع أن يقنع نفسه بأن الجمال هو الحق ، وأن الحق هو الجمال ، ولا يحتاج بعد ذلك إلى كلام أو شرح أو بيان ، فإنني أنا مع الأسف لا يكفيني هذا وإن كنت آنس من نفسي حب كلمته هذه والسرور بها سروراً ليس مرجعه إلى الفهم .

ابراهيم عبد القادر المازني

انتظروا عدد الرسالة الممتاز

في صباح ١٣ مارس

صور اسلامية

قطعة من التاريخ تنفض حياة ، وتنطق صدقاً ، ومראה مجلوة تنعكس فيها صور صحابة الرسول في حياتهم الخامة وتردان بآيات جهادهم ، ألفه :

الأستاذ عبد الحميد المشهدى

وجمع فيه بين حقائق التاريخ وروائع الفن القمصى . فأضفى كتاباً لا يستغنى عنه مؤرخ ولا أديب ولا يسد مكانه كتاب آخر .

صدر منه الجزء الأول والثاني . ثمن الجزء الواحد خمسة قروش مع أجرة البريد . يطلب من المكتبات الشهيرة ، ومن المؤلف بالدار رقم ١٨ شارع الشيخ عبدالله بمصر